

تقديم

يؤرخ العالم الإسلامي كله بهجرة النبي العربي من مكة إلى المدينة . والسر في اختيار هذا الحادث العظيم مبدأً للتاريخ الإسلامي أنه مبدأ نصر الله رسوله على الذين حاربوا دعوته في البلد الحرام ثم مكروا به ليقتلوه . وكان الصديق أبو بكر هو وحده صاحب رسول الله في هذه الهجرة . ولما مرض رسول الله مرضه الأخير ، فلم يقو على الصلاة بالمسلمين ، أمر أبا بكر أن يقوم في الصلاة بهم مقامه ، ولم يرض أن يقوم عمر بن الخطاب هذا المقام .

اختيار النبي
الصديق في الهجرة
والصلاة بالمسلمين

وإنما اختار النبي أبا بكر ليصاحبه في الهجرة ، وليصلي بالمسلمين مكانه ، لأن أبا بكر كان أول المسلمين إيماناً بالله ورسوله ، وأكثرهم في سبيل إيمانه تضحية ، ولأنه حرص منذ أسلم على معاونة النبي في الدعوة لدين الله وفي الدفاع عن المسلمين ، ولأنه كان يؤثر النبي على نفسه ، ويقف إلى جانبه في كل موقف ؛ ثم إنه كان ، إلى قوة إيمانه ، من أدنى الناس إلى كمال الخلق ، ومن أحب الناس إلى الناس وأكثرهم إلغاً لهم ومودة .

لا عجب ، وذلك بعض شأنه ، أن يبایعه المسلمون خليفة لرسول الله . ولا عجب ، وتلك مواقفه ، أن ينصر الإسلام وينشر ظل الله في الأرض ، فيكون التاريخ له مبدأ التاريخ للإمبراطورية الإسلامية التي امتدت من بعد في الشرق وفي الغرب ، إلى الهند والصين في آسيا ، وإلى مراكش والأندلس في إفريقيا وأوربا ، والتي وجهت الحضارة الإنسانية وجهة لا يزال العالم متأثراً بها إلى اليوم .

ولقد جال بخاطري ، مذ فرغت من كتابي « حياة محمد » و « في منزل الوحي » ، أن أقوم بدراسات في تاريخ هذه الإمبراطورية الإسلامية ، وفي أسباب عظمتها وانحلالها . وإما أغراني بالتفكير في هذا الأمر أن الإمبراطورية الإسلامية كانت أثراً لتعاليم النبي العربي وسنته . أمّا وقد درست حياته صلى الله عليه وسلم ، ورأيت نتائج هذه الدراسة جديرة بأن تهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة التي تنشدها ، فإن في دراسة هذه الإمبراطورية وأطوارها ما يزيدنا قدراً للناسى بالرسول وتعاليمه ، وما ييسر لنا حظاً جديداً من العلم بهذه الحياة الباهرة الجلال يزيد العلماء اقتناعاً بما دعوت إليه من إمعان البحث فيما تنطوي عليه من حقائق نفسية ، وأخرى روحية ، ما يزال العلم يقف بوسائله حائراً دونها ، لا يستطيع أن يثبتها بأدلتها ، ولا يستطيع مع ذلك أن ينفيها ، وهي من بعد قوام سعادة الإنسان في الحياة ومقوم سلوكه فيها .

وأغراني بهذا التفكير كذلك ما أعتقد من أن معرفة الماضي هي وحدها التي تطوّر لنا تصوير المستقبل وتوجيه جهودنا أثناءه إلى الغاية الجديرة بالإنسانية . فالماضي والحاضر والمستقبل وحدة لا سبيل إلى انفصامها . ومعرفة الماضي هي وسيلتنا لتشخيص الحاضر ، ولتنظيم المستقبل ؛ كما أن معرفة الطبيب ماضى مريضه خير وسائل التشخيص والعلاج .

والحاضر الذي تمخضت عنه الإمبراطورية الإسلامية يتناول بنوع خاص كل الشعوب التي تتكلم العربية ، وتؤمن لذلك بأنها تمتّ لأهل شبه الجزيرة بصلة ونسب . ومصر مركز الدائرة من هذه الشعوب : تمتد حولها فلسطين وسوريا والعراق إلى الشرق ، وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش إلى الغرب . ويتناول هذا الحاضر بنوع عام جميع الشعوب التي تدين بالإسلام في آسيا وإفريقية وأوروبا . لاجرم وماضى الإمبراطورية الإسلامية يربط على الزمان هذه الأمم والشعوب

كافة أن تكون دراسته موضع عنايتها جميعا ، وأن يرى كل منها صورته إلى أربعمائة وألف سنة خلت ماثلة في هذه الدراسة ، وأن يتعرف من طريقها الأسباب التي أدت إلى ما أصاب هذه الصورة من شَوْهٍ أو فساد ، وأن يلتبس الوسيلة من طريق هذا التعرف لرد الصورة إلى جلالها الأول وبهائها المضيء .

وإني لأفكر في هذه الأمور وفيما يتصل بها إذ رغب إليّ جماعة ممن أبدوا الرضا عن « حياة محمد » أن أتناول حياة خلفائه الأولين بالبحث ، وأن أفرد لطائفة من أبطال المسلمين في العهد الأول تراجم مستفيضة ، أسجل في كل واحدة منها سيرة واحد من هؤلاء الأبطال . ولئن أرضى مطلب هؤلاء الأصحاب نفسى وتملّق رضاي عنها لقد أشفتُ عليها مما طلبوا ؛ فهو أمر يقصر دون إتمامه الجهد ، وتنوء بإحسانه جماعة متضافرة .

ما جعلني أبداً
بسيرة الصديق

وكانت الترجمة لعمر بن الخطاب مما أكثر الحديث فيه قوم رأوا سيرة الفاروق غرة في جبين التاريخ الإسلامي . قلت عند ذلك في نفسى : وما لى لا أبداً بسيرة الصديق فأدرُسها وأعرضها على النحو الذى عرضت به « حياة محمد » ! . لقد كان أبو بكر صنيّ محمد وخليّله ، وكان أكثر أصحابه اتصالاً به ، وكان لذلك أكثرهم تتبعاً لتعاليمه وامثالاً إياها . وهو بعد رجل رقيق الخلق ، رضى النفس ، وإليه ينتسب عشرات الألوف ومئاتها من المسلمين المنتشرين في أنحاء الأرض . ثم إنه ، إلى رفقه ورقته ، هو الخليفة الأول ، وهو الذى أقر الإسلام حين حاول المرتدون من العرب أن يقوّضوا ركنه أو يثاموا متنه ، كما أنه هو الذى مهدّ للفتح وللإمبراطورية . فعلى ، إذا وفقت لتدوين سيرته على النحو الذى أرجو ، أكون قد عبّدت الطريق لكتابة تاريخ هذه الإمبراطورية كله أو بعضه ، فأبلغ بذلك ما يريد الله أن أبلغه من هذا الغرض العظيم ، وأمهّد السبيل لمن شاء أن يتمه أو يأخذ فيه من جديد على نحو أدنى إلى الكمال .

ولو أنى قرّبي الجهد عند سيرة أبي بكر لكفاني ذلك ولا غتبطت به .
وحسبك أن تتلو ما حدث في عهد الخليفة الأول لتسكن إليه وتستقر عنده . إن
فيما رواه المؤرخون من وقائع هذا العهد لما ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة ،
بل الإعجاب ، بل الإكبار والإجلال ، وأخشى أن أقول إنها تدعو إلى التقديس .
أنت لا ترى هذه المعاني مصوّرة في أى من الكتب الأولى ؛ لكن روايتها
للحوادث تبرزها وإن لم تنطق بها ، وتجلوها بيّنة واضحة وإن لم تذكرها ولم
تحدّث عنها .

فهذا الرجل الوديع السمع الأسيف السريع إلى التأثير وإلى مشاركة البأس
في بؤسه ، والضعيف في ضعفه ، تنطوى نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد
ولا الإحجام ، وعلى قدرة ممتازة في بناء الرجال ، وفي إبراز ملكاتهم ومواهبهم ،
وفي دفعهم إلى ميادين الخير العام ينفقون فيها كل ما آتاهم الله من قوة ومقدرة .
أين كانت هذه العبقريّة التي انطوت عليها نفس أبي بكر أثناء حياة الرسول ؟

عدت بالذاكرة إلى سيرة أبي بكر قبل خلافته ، واستحضرت مواقفه من
رسول الله ، فبدت لي في ثوب جديد من الجلال تحيط بها هالة من عظمة تواضعت
إلى جانب عظمة الرسول وجلاله ؛ لكنها برزت أمامي بكل بهائها وجلالها حين
قرنت صاحبها إلى سائر أصحاب رسول الله ومن اتبعه من المسلمين . فأين مواقفهم ،
على جلالها وعظمتها ، من مواقفه أول الرسالة ، وحين كانت قريش تنال رسول الله
بالإساءة والأذى ، وحين كان حديث الإسراء ، وأول الهجرة ، وفي مكافحة دسائس
اليهود يثير ؟ !! إن كل موقف من هذه المواقف لكفيل وحده بأن يؤرخ
لرجل وأن يثبت اسمه في كتاب الخلود . وعظمة أبي بكر مع ذلك هي العظمة
الصامته التي تأبى أن تتحدث عن نفسها ؛ لأنها عظمة الروح وعظمة الإيمان
الحق بالله وبما أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

حسن رأيه
وبعد نظره

ثم ماذا !! ثم إن رواية الحوادث في عهد أبي بكر تشهد له بحسن الرأي
وبعد النظر . فهو حين فكر في غزو الفرس وفي غزو الروم لأوّل ما اطمأن إلى
موقف المسلمين من حروب الردة في بلاد العرب ، قد رأى في مبدأ المساواة الذي
جاء الإسلام به قوة جديدة لا تستطيع فارس ولا تستطيع بُزَظية أن تواجهها .
فهذا المبدأ جدير بأن تهوى إليه نفوس الناس جميعاً في هاتين الإمبراطوريتين
اللتين قامتتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف وعلى التفاوت بين الناس . ليكن
لكل من الإمبراطوريتين ما تشاء من عدد وعدة ؛ فإن فكرة المساواة والعدل
أقوى من كل قوة . والحكم القائم على أساس هذه الفكرة جدير بأن يكسب
الناس إليه ما كان الإنصاف أساسه . لذلك لم يصد أبا بكر عن غزو العراق وغزو
الشام ما كان من اختلاف طائفة من كبار الصحابة معه في الرأي ، بل أمر بهذا
الغزو مطمئناً إلى أن الله معينه وناصره . ولذلك نصح إلى من بعثهم على رأس هذا
الغزو أن يتمسكوا بالمساواة والإنصاف والعدل لا يحيدون عنها قيد أنملة .

تتجلى هذه المعاني واضحة كل الوضوح من خلال الحوادث التي رواها المؤرخون
الأولون عن هذا العهد القصير العظيم الذي تولى الصديق فيه أمر المسلمين ؛ ويزيد
ما كتبه المستشرقون بعض هذه المعاني وضوحاً بما أوردته كتبهم من ملاحظات ،
وما حاولت أن تفسره بعض الحوادث .

وهذه المعاني هي التي تجعل هذا العهد القصير خليقاً أن يفرد له سفر مستقل
يصور ذاتيته الخاصة وتكوينه التام .

وأنا أقصد ما أقول حين أذكر أن عهد الصديق له ذاتيته الخاصة وتكوينه
التام . فهو ، على اتصاله بعهد الرسول قبله وبعهد عمر بعده ، يمتاز بطابع يشخصه .
فعهد الرسول كان عهد وحى من عند الله ، أكمل الله به للناس دينهم ، وأتم عليهم
نعمته ، ورضى لهم الإسلام ديناً . وعهد عمر كان عهد تنظيم للحكم الذي استقرت

قواعده ، وللإمبراطورية التي تفتحت أبوابها . أما عهد أبي بكر فكان فترة الانتقال العصبية الدقيقة التي تربط بين هذين العهدين ، وتتميز مع ذلك عن كل منهما ، بل تتميز عن كل عهد عرفه الناس في تاريخ الحكم واستقراره ، وفي تاريخ الأديان وانتشارها .

في هذه الفترة الدقيقة صادفت أبا بكر صعبٌ بلغت من الشدة أن أثارت مخاوف المسلمين جميعاً في أول عهده . فلما تغلب بفضل إيمانه عليها ، وأمدّه الله بالتوفيق والنصر فيما تلاها ، تولى عمر بن الخطاب سياسة المسلمين ، فدير أمورهم ، وأقام بينهم عدلاً وطّد قواعد ملكهم ، وجعل دول العالم تدين طائعة لسلطانهم .

تغلبه على مصادفه
من صعب

أثارت الصعاب التي صادفت أبا بكر مخاوف المسلمين . ذلك لأن الوحدة العربية التي تمت في عهد الرسول لم تلبث أن اضطربت حين وفاته . بل لقد بدأت نُذر هذا الاضطراب قبل أن يختار الله رسوله إليه . تنبأ مسيلمة بن حبيب باليامة وبعث رساله إلى النبي بالمدينة يقولون له إن مسيلمة نبي مثله ، « وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قریشاً قوم لا يعدلون » . وتنبأ الأسود العنسي باليمن وادعى السحر ، وجعل يدعو الناس إليه خفية ، حتى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطردها عمال محمد ، وتقدم إلى نجران ونشر في تلك الأصقاع سلطاناه ؛ وبعث محمد إلى عماله باليمن كي يحيطوا بالأسود أو يقتلوه . هذا إلى أن العرب الذين آمنوا بالتوحيد ونبذوا عبادة الأوثان لم يدر بخاطر أحدهم أن تعقب وحدتهم الدينية وحدة سياسية ؛ بل إن كثيراً منهم راجعهم الحنين إلى عقائدهم الأولى ، فلم يلبثوا حين علموا بوفاة رسول الله أن ارتدوا عن دين الله ، وأن أعلن أكثر القبائل عدم الإذعان لسلطان المدينة ، وعدّوا الزكاة إتاوة مفروضة فامتنعوا من أدائها .

استطارت هذه الثورة عقب وفاة الرسول في بلاد العرب جميعاً بسرعة مروعة كما تستطير النار في الهشيم . وبلغت أنباؤها أهل المدينة ممن حول أبي بكر بعد

الثورة في بلاد
العرب وحروب
الردة

أن بايعوه ، فتولاهم الدهش واختلفوا ما يصنعون . وكان رأى قوم ، بينهم عمر ابن الخطاب ، ألا يقاتلوا الذين منعوا الزكاة ما داموا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ولعلمهم أرادوا بذلك ألا يزيدوا عدد عدوهم فيتغلب عليهم ، ولم يعدهم الله ما وعد رسوله من النصر ، وليس ينزل الوحي على أحد منهم بعد أن اختار الله إليه خاتم الأنبياء والمرسلين . لكن أبا بكر أصر على قتال من منعوا الزكاة كما أصر على قتال من ارتدوا ، فكانت حروب الردة التي استطالت عاماً وبعض عام .

ولم تكن حروب الردة غزوات اشتبك فيها بضع مئين من جيش الخليفة وبضع مئين من خصومه ، بل كانت بعضها طاحنة اشترك فيها عشرات الألوف من كل جانب ، وقتل فيها المئات بل الألوف من هؤلاء ومن أولئك ، ثم كان لها في تاريخ الإسلام أثر حاسم . ولو أن أبا بكر نزل على رأى من لم يريدوا هذه الحروب لساد الاضطراب بلاد العرب ، ولما قامت الإمبراطورية الإسلامية . ولو أن جيوش أبي بكر لم تنتصر في هذه الحروب لكانت العاقبة أدهى وأمر ، ولتغير في الحالين مجرى التاريخ في العالم كله . لذلك لا يكون غالياً من يقول إن أبا بكر ، بموقفه من ردّة العرب وبانتصاره فيها ، قد وجه تاريخ العالم ، وكان يد الله في بعث الحضارة الإنسانية خلقاً جديداً .

آثار انتصاره في
حروب الردة

فلولا انتصار أبي بكر في حروب الردة لما بدأ غزو العراق وغزو الشام ، ولما سارت جيوش المسلمين مظفرة تفتح الإمبراطوريتين الرومية والفارسية لتقيم الإمبراطورية الإسلامية على أنقاضهما ، ولتُحلّ الحضارة الإسلامية محل حضارتيهما . ولولا حروب الردة ، واستشهاد من استشهد من الصحابة لإحراز النصر فيها ، لخيف ألا يسارع عمر فيشير على أبي بكر بجمع القرآن . وهذا الجمع هو الذي أدى إلى توحيد القراءة بلغة مضر في عهد عثمان ، فظل كتاب الله الكريم أساساً

ثابتاً لسكامة الحق ، ودعامة متينة للحضارة الإسلامية . ولولا نصر الله المسلمين في حروب الردة لخيف ألا يقر أبو بكر نظام الحكم في المدينة ليقبمه عمر من بعده على أساس من الشورى ، سداه العدل والرحمة ، ولحمته البر والتقوى .

هذه أحداث جليلة تمت في فترة قصيرة لم تعد سبعة وعشرين شهراً . ولعل قصر هذه الفترة هو الذى دعا بعضهم إلى أن يتخطاها إلى عهد عمر ، ظناً منهم أن أشهراً معدودات لا تتسع لعظائم تغير وجه العالم . ولو أن هؤلاء ذكروا أن الثورات التى نقلت الإنسانية أطواراً تمت كلها فى مثل هذه الفترة ، وأن العالم جعل يمثل مبادئ هذه الثورات بعد ذلك شيئاً فشيئاً ويفيد منها لرقى الإنسانية فى توجيهها إلى الكمال ، لما سارعوا إلى الانتقال من عهد الثورة الروحية التى أعلنها رسول الله فى العالم كله إلى الإمبراطورية المترامية الأطراف التى دانت لهذه الثورة ، دون أن يقفوا ملياً عند هذه الفترة التى حاول العرب فيها أن يقوموا برد الفعل فى وجه ما جاء محمد به ، شأنهم فى ذلك شأن الناس فى كل زمان ومكان ، إذ يحاربون المبادئ الجديدة يحاولون إطفاء نورها . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

كيف استطاع أبو بكر أن يواجه الصعاب التى استفتحت عهده ، وأن يثبت لها ويتغلب عليها ، وأن يبدأ التمهيد للفتح والإمبراطورية وهذه الصعاب قائمة ؟ . لقد كان لصفاته الذاتية أثر كبير فى ذلك لا ريب . لكن هذه الصفات وحدها ما كانت لتبلغ به ما بلغ لولا صحبته الرسول عشرين سنة كاملة . ولذا يجمع المؤرخون على أن عظمة الصديق فى خلافته تتصل بعظمته فى صحبة الرسول أوثق اتصال . فهو قد أشرب أثناء هذه الصحبة روح الدين الذى جاء به محمد ، وأدرك مقاصده وأغراضه كاملة إدراك إلهام لا يتطرق إليه الخطأ ولا الريب . ومما أشربه وأدركه بإلهامه أن الإيمان قوة لا يغلبها غالب ما تنزه المؤمن عن كل غرض

اتصال عظمته فى
الخلافة بعظمته
فى الصحبة

إلا ابتغاء الحق لوجه الحق وحده . هذه حقيقة روحية أدركها كثيرون في عصور شتى ، لكنهم أدركوها بعقولهم . أما أبو بكر فأدركها بقلبه ، وراها بعينه ماثلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عمله .

وهذا الإيمان الصادق بالحق هو الذي دفعه ليخالف أصحابه في أمر المرتدين ، ويُصرّ على قتالهم وإن خرج إليهم وحده . وما له لا يفعل وقد رأى النبي يقف وحيداً يدعو إلى الله بمكة فيخالفه أهل مكة جميعاً ، ثم يغرونه بالمال والملك وعظمة الجاه ، ثم يحاربونه يبتغون بذلك أن يصدوه عن الحق الذي يدعو إليه ، فلا يفتر عن أن يقول : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته ! » .

أثر التأسي فيه
وما استلهمه منه

وما له لا يفعل وقد رأى النبي في أعقاب أحد ، وبعد أن انتصرت قريش على جيوش المسلمين فيها ، يرتدّ لغده فيمن بقي من المسلمين ممن شهد أحداً ، ويتعقب قريشا ، وينزل حمراء الأسد ويقيم بها ثلاثة أيام ، يوقد النار طول ليله ، حتى ترعزعت همه قريش وانصرفت إلى مكة ، وقد استرد المسلمون من مكاتهم ما زعزعتهم أحد ! .

ثم ما له لا يفعل وقد رأى النبي يقف صبح حنين في عدد قليل من أصحابه ينادي في جيش المسلمين إذ يولّون الأدبار : « أين أيها الناس ، أين ! » ، وهذه الألوف المؤلفة تفرّ تولّاها الفرع . فلما عرف الناس موقف النبي وسمعوا نداء العباس : « يامعشر الأنصار الذين آوّا ونصروا ، يامعشر المهاجرين الذين يابعوا تحت الشجرة ، إن محمداً حي فلهوا » ، تصايحوا من كل جانب : « لبيك ، لبيك » ، وارتدوا إلى المعركة مستبسلين !

أيّ تأسيّ كهذا التأسيّ يُلهم المرء أن الإيمان قوة لا يغلبها غالب ما تنزه المؤمن عن كل غرض إلا ابتغاء الحق لوجه الحق وحده ! ! وأي رجل له من الإيمان

ما لأبي بكر لا يضاعف تأسّيه بالرسول قوة نفسه فيجعله من عناصر الوجود الحاسمة القاهرة ! هذه هي القوة الروحية التي لا سلطان لشيء في الحياة عليها ، والتي لا تعرف الضعف ولا التردد ، ولا يغلبها لذلك غالب ! .

القوة الروحية
للإيمان

وهذه الأسوة الروحية التي التمسها أبو بكر في رسول الله ، والتي جعلت للمسلمين الغلب على المرتدين من سائر العرب ، قد دفعت إلى نفوس المسلمين جميعاً حمية سمت بهم إلى الإيمان بأنهم لا غالب لهم من دون الله ، وحببت إليهم الاستشهاد في سبيل الحق ، وجعلتهم يرون هذا الاستشهاد نصراً دونه كل نصر . وأنت ستقرأ في هذا الكتاب من آيات ذلك ما قل في التاريخ نظيره . لقد كان المسلمون في عهد رسول الله مطمئنين إلى النصر ؛ لأن الله وعد به رسوله ، فكان يمدّه بالملائكة ، وكان يوحى إليه ما يحقق وعده جل ثناؤه . أما في عهد أبي بكر ، وقد انتهى الوحي باختيار الله إليه رسوله ، فقد أصبح الإيمان وحده ، وأصبح التأسى برسول الله وبخليفته في السمو بهذا الإيمان إلى ما فوق كل اعتبار في هذه الحياة الدنيا ، وأصبح الاستشهاد في سبيل هذا الإيمان ، سرّ القوة ، وسر النصر ، وسر الرقي بما تنطوي عليه نفوسنا من معانٍ إنسانية رفيعة إلى غاية الكمال الإنساني .

هذه حقيقة روحية استلهمها الصديق من تأسّيه بالنبي ، فجلّتها لنا أعمال المسلمين في خلافته وبتوجيهه على نحو من الوضوح يجعلنا نلمسها وكأنها أمر مادي تقع عليه الخواص بمقدار ما تمتثله الروح . ونحن نلمس هذه الحقيقة الروحية في حروب الردّة كما نلمسها في فتح العراق وفي فتح الشام . فلولا هذا الإيمان ما استطاع المسلمون ، على قلتهم ، أن يتموا في عهد الخليفة الأول ما تم من جلائل الأعمال ، وما مهد للإمبراطورية الإسلامية العظيمة .

وقد استلهم أبو بكر من تأسّيه بالرسول ، إلى جانب هذه الحقيقة الروحية ، حقيقة اجتماعية بعيدة الأثر في حياة الأمم . فكل أمة تعتزّ بنفسها ، وتطمئن إلى

الحقيقة الاجتماعية
بعد الحقيقة
الروحية

قوتها ، وتشعر بأن عليها رسالة واجبة الأداء للعالم ، وبأن العالم يجب أن يسمع لهذه الرسالة — مثل هذه الأمة لا يقف في سبيلها سلطان وإن عظم ، ولا تصدها عن أداء رسالتها قوة من القوى .

وتضافر هاتين الحقيقتين ، الروحية والاجتماعية ، قد كانت في كل العصور والأمم أساساً لفوز الشعوب التي تندفع متأثرة بسلطانها ولنجاح الرسالة التي تدعو هذه الشعوب لها .

والأمر كذلك بخاصة إذا قامت هذه الرسالة على أساس من الدعوة إلى نيل الظلم ، والحرص على عدل قوامه المساواة الصحيحة بين الناس . ولطالما قامت إمبراطوريات على هذا الأساس في مختلف حقب التاريخ . ولطالما تداعت إمبراطوريات بعد قيامها لأنها حادت عن هذه الطريق ، فاتخذ خصومها انحرافها عنها وسيلة لمناوأتها ومقاومتها .

أدرك وآمن أن
الاسلام دين
مساواة

والمساواة سدى الإسلام ، وهو لذلك إمبراطوري الأئمة . هذه حقيقة ندركها اليوم بعقولنا كما أدركها كثير ممن سبقونا بعقولهم ، ثم لم يستطيعوا ولم نستطع أن نحفظ بالإمبراطورية الإسلامية في العالم لظروف خاصة بنا أو خارجة عن إرادتنا . أما أبو بكر فأدركها بإلهامه وآمن بها عن يقين ، فدفع المسلمين لتنفيذها ، فأقروها في العالم فاستقرت أجيالاً وقروناً .

أدرك أبو بكر بإلهامه أن الإسلام في صفاء جوهره دين مساواة بين الناس جميعاً . فالدعوة به لم توجه إلى قوم بعينهم ، وإنما وجهت إلى الناس كافة . وقد اصطفى رسول الله في حياته موالي رفعهم إلى أعز مكانة وأسمائها ، كما أقر جماعة من العجم على حكم العرب . فسلمان الفارسي كان من خاصته المقربين . وزيد ابن ثابت ، مولاه الذي اشترته خديجة ثم وهبته له فأعتقه وتبناه ، كان القائد في غزوة مؤتة ، كما كان على رأس أعمال كثيرة قبلها . وأسامه ابنه هو الذي عقد

له الرسول قبيل مرضه الأخير لواء جيش يضم جلة المهاجرين والأنصار ، ومن بينهم أبو بكر وعمر ؛ وقد أقر صلى الله عليه وسلم بأزان الفارسي على حكم اليمن . ولم يكن الناس يتفاوتون عند رسول الله لعروبتهم ولا لمكانة قبائلهم ، وإنما كانوا يتفاوتون بأعمالهم . وكان من أصحاب مشورة رسول الله ومن أولى الراى بين المسلمين شبان أبرزهم إلى الصف الأول حسن إيمانهم وجميل بلائهم في سبيل الله . وكانت سيرة رسول الله هذه بعض ما أمر الله به في كتابه ، إذ فاضل بين الناس بالتقوى ، وإذ جعل جزاءهم رهناً بعملهم ، وإذ رفع بعضهم فوق بعض درجات بهذا العمل وهذه التقوى . لا جرَمَ ، وتلك سنة رسول الله ، أن يخفف العرب من غلواء نعرتهم الجنسية ، وإن أقاموا على اعتزازهم بها ، وإن جعلوا اصطفاء الله نبيه من بينهم حججهم على سمو مكانتها . ولا جرَمَ أن يتخذ أبو بكر من هذه المساواة الإسلامية بين الناس وبين الأجناس سنته ، فتكون القوة التي تهزم أمامها جيوش الفرس وجيوش الروم .

وَأَنَّ الْإِسْلَامَ
لِإِمْرَأَةٍ
فِي جَوْهَرِهِ

وأدرك أبو بكر بإلهامه أن الإسلام إمبراطورية في جوهره . فالدعوة إليه لم تنحصر في العرب ، بل هي دعوة إلى الحق موجهة إلى الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها . أمّا وذلك مداها ، وقد وجه النبي رسله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى دين الله ، فحق على كل من آمن بهذا الدين أن يدعو إليه ، وأن ينشر كلمته هدى للناس ورحمة . ولكل مسلم في رسول الله أسوة حسنة . لقد أذاع رسول الله الدعوة في الناس على اختلاف أجناسهم . فليُنشر خلفاؤه هذه الدعوة في أنحاء الأرض جميعاً ، وليجاهدوا في سبيل حريتها ، لا يستكبرهون أحداً ولا يقبلون من أحد أن يصدّهم عن الحق الذي اهتموا إليه . وليجعلوا العالم كله ميدان دعوتهم إلى هذا الحق وإن أصابهم في سبيل الله ما أصابهم ؛ فإن استشهدوا فلهم عند الله جزاء الشهداء .

هذه المبادئ الجوهرية التي قامت دعوة النبي العربي على أساسها ، والتي أدركها أبو بكر أدق الإدراك بإلهامه لما كان من صحبته رسول الله وتشبعه بتعاليمه ، هي التي طوّعت للصدّيق أن يذل ما استفتح عهده من صعاب وأن يتغلب عليها ، وهي التي أسرعت بالإمبراطورية الإسلامية إلى أنحاء العالم وأظلت أمماً كثيرة منه بلوائها . ولقد ظلت هذه الأمم أجيالاً متعاقبة ناهضة بعبء الحضارة في العالم ، ثم أدركها الهرم الذي يدرك الأمم والإمبراطوريات ، ثم تولتها السنّة الطويلة التي تقابل موت الأفراد .

إلام يرجع
ما أصاب
الإمبراطورية
الإسلامية
من انحلال

أف يرجع هذا الهرم ثم هذه السنّة الطويلة إلى أن المبادئ الجوهرية تبين فسادها ، أم يرجعان إلى أن الأمم التي انحلت عن الإمبراطورية الإسلامية جحدت هذه المبادئ وأخذت بنقيضها فأصابتها الهرم والاضمحلال بضيعها ؟ ! ذلك كل تاريخ الإمبراطورية الإسلامية في قيامها وعظمتها وتدهورها . وهو تاريخ جدير بأن يدوّن على طريقة من البحث العلمي الوثيق الذي لا يعرف التعصب ولا يرضاه ، والذي يرمى إلى تحليل الحوادث وردها إلى أسبابها تحليلاً يقره العقل ويتفق لذلك وما ركب في الطبيعة الإنسانية من نزوع روحي إلى الكمال ، ومن تشبث مع ذلك بأهداب هذه الحياة الدنيا تدعوننا إليه أهواؤنا وشهواتنا ، فتحول بيننا وبين إدراك الغاية التي نبغى من هذا الكمال .

لا أراني في حاجة إلى أن أقول إن هذا الهرم وهذه السنّة يرجعان إلى جحود الأمم التي انحلت عن الإمبراطورية الإسلامية للمبادئ الجوهرية التي قامت هذه الإمبراطورية على أساسها ، مبادئ الإسلام في صفاء جوهره . ذلك أمر يلُمسه المحقق النصف لتاريخ هذه الإمبراطورية ، ويراه في أطواره المتصلة منذ بدأ الخلاف بين المسلمين من أهل شبه الجزيرة إلى أن جسّمت الفرقة بين العرب والعجم شقة هذا الخلاف ، وفتحت به الأبواب واسعة للتدهور والانحلال .

ليس يتسع هذا التقديم لتفصيل هذا الأمر ولا لإجماله . فحسبى هذه الإشارة إليه . ولأقف هنا فى حدود العهد القصير العظيم ، عهد الصديق أبى بكر ، ولأسجل ما كنت أشعر به من فيض المسرة حين تأريخى له . وأكبر رجائى أن أكون فيما كتبت عنه قد أرضيت فى نفسى حب الحق ، وبلغت بعض ما أردت من رسم الصورة التى حاولتها دقيقة ، فيها من الحياة ما يبعث الماضى مجلواً على صفحة الحاضر . وأقول بعض ما أردت ، لأننى كنت أحس دائماً أن هذه الصورة ينقصها شيء غير قليل من الكمال لم يتسنّ لى أن أصل إليه لأسباب مختلفة .

وإننى لتضاعف غبطى لو أن كتابى هذا نقل إلى نفس قارئه صورة واضحة من عهد الصديق خليل النبى العربى وصفه . قد يشوب مطمعى هذا بعض الغلو . فلعهد الصديق ، كما قدمت ، صورة خاصة تامة التكوين يستشفها الإنسان من خلال ما كتب عنه ويتصورها فى كمال بهائها . لكن البلوغ بصورة ما حد الكمال محتاج إلى جهد متصل يتعاقب على الأجيال ، ويتناوله التمهيد من نواحيه المختلفة . ولم يبذل من الجهد فى أمر الصديق وعهده ما يدنى من هذا الكمال ؛ فهو لا يزال مفتقراً إلى جهود جديدة يتضافر فيها البحث والتمهيد مع الموازنة بالعصر الذى عاش الصديق فيه ، وبحياة الأمم صاحبة الأثر فى هذا العصر . ولست فى ريب من أن هذه الجهود ستبذل عما قريب ، وستعاون على تمام الصورة التى تظهر هذا العهد واضحاً ، مجلوة بينة تفاصيله .

حاجة عهده إلى
الجهود لاضطراب
المراجع فيه

وعهد الصديق أحوج إلى هذا الجهد من غيره من العهود . فالمراجع العربية القديمة التى تتحدث عنه يشوبها اضطراب يجعل تتبع الحوادث الروية فيها عسيراً فى بعض الأحيان كل العسر . ثم إنها كثيراً ما تثبت روايات هى أدنى إلى الخرافة منها إلى التاريخ . وقد يجد الإنسان فى موازنة بعض هذه المراجع ببعض ما يعينه على تمهيد الحوادث . لكنها تتواتر روايتها أحياناً لحوادث

يقف الإنسان منها موقف الحيرة ، فلا يسعه إلا أن يثبتها مع الإشارة إلى ما يخالجه من الريبة فيها .

عذر المؤرخين
عما في رواياتهم
من اضطراب

وإني لأجد للمؤرخين الأولين أبلغ العذر عما شاب رواياتهم من اضطراب كان له أثره في جهود من بعدهم إلى عصرنا الحاضر . فهذه الفترة التي تولى الصديق فيها أمر المسلمين كانت فترة جهاد أى جهاد ، حمل فيها كل من آمن بالله ورسوله عبثاً عظيماً لتأييد الدعوة إلى دين الله وما جاء به رسوله من عنده . اندفع هؤلاء جميعاً إلى ميادين النضال ، يجاهدون في سبيل الله ، يقتلون ويُقتلون ، مستهينين بالحياة ونعمائها ، مؤثرين البأساء ، صابرين على الضراء ، واهبين أنفسهم لله ، لا يبتغون عن جهادهم أجراً إلا مثوبته جل شأنه . لم يكن يوم من أيامهم ينقضى في طمأنينة أو أمن ، ولم يكن أحد منهم يفكر في أمسه لأن غده يطالبه بأكثر مما عمل في ذلك الأمس . لذلك لم يفرغ أحد لتدوين ما حوته هذه الفترة من جسام الحوادث تدويناً منظماً ؛ وإنما تناقل الناس من بعد أنباءها يرويها بعضهم لبعض ، ويتناقلها بعضهم عن بعض ، ثم لا يروونها ويتناقلونها بمثل ما يروون به ما حدث في عهد الرسول من تقديس وإجلال . وكيف يفعلون وقد كانوا في شغل متصل بالفتح وتنظيم الإمبراطورية التي تزداد كل يوم فسحة وسعة !! لذلك كان لا بدّ لمؤرخ هذا العهد من تقليب الروايات وموازنتها واقتناص الحقيقة من خلالها . وهذا جهد شاق حاوله الأقدمون على طريقته . ومع تقديرنا لجهدهم وإكبارنا لشأنهم ، فإنهم لم يُبرزوا عهد الصديق وحكمه في صورة يجلو وضوحها ما انطوى عليه من قوة تقف النظر وتبهر اللب وتثير في النفس غاية الإعجاب .

من أمثلة
الاضطراب
في المراجع

وحسبك أن ترجع إلى سجل المراجع التي أخذنا عنها هذا الكتاب ، وأن تتلو فصوله لتقدر مبلغ الدقة فيما نقوله عن المتقدم منها . فبعض هذه المراجع لا يتعرض ، إلا لماماً ، لأمر جليلة الخطر ترويه المراجع الأخرى مفصلة

أدق التفصيل . فالطبري وابن الأثير والبلاذري لا يكادون يتعرضون لجمع القرآن ؛ وجمع القرآن من جلائل الأعمال التي ازدان بها عهد الصديق إن لم يكن أجلها . وما يتعرض له هؤلاء المؤرخون من رواية الحوادث عن حروب الردة وعن فتح العراق ثم فتح الشام يقع عليه الخلاف بينهم ؛ بل ترد الروايات المختلفة في أمره في الكتاب الواحد من كتبهم ، حتى ليحار الإنسان أي الروايات يأخذ وأيها يدع . والخلاف على الزمن الذي حدثت فيه الوقائع لا يقل عن الخلاف في تصوير الوقائع جسامه . وكثيراً ما يكون تحديد التاريخ لبعض هذه الوقائع مغامرة لا تستند إلى أساس يمكن الاعتماد عليه في شيء من الدقة . ونسبة بعض الحوادث إلى بعض محير كذلك . فالطبري يروي أن حروب الردة وقعت في السنة الحادية عشرة للهجرة ، وأن فتح العراق تم في السنة الثانية عشرة ، وأن فتح الشام تم في السنة الثالثة عشرة . وأنت تكاد تظن إذ تقرأ هذا التعاقب الزمني أن فتح العراق لم يبدأ إلا بعد الفراغ من حروب الردة ، وأن فتح الشام لم يبدأ إلا بعد أن استقر الأمر في العراق . لكن شيئاً من التدقيق في مراجعة الحوادث ووقوعها لا يلبث أن يملك على الريبة في هذا التعاقب . فإذا زدت في التدقيق تبينت أن فتح العراق بدأ وحروب الردة لا تزال قائمة ، وأن فتح الشام بدأ في أعقاب حروب الردة وجيوش خالد بن الوليد لا تزال تعالج إقرار السكينة في العراق وتتوقع غزوات فيه جديدة .

تعذر تتبع
الحوادث في
تسلسلها التاريخي

ولا يقف مثار الحيرة عند هذا . فكثيراً ما يتعذر تتبع الحوادث في تسلسلها الجغرافي . بل إن بعض الروايات ليتنافى مع هذا التسلسل . دع عنك تغير أسماء الأماكن وما في تشابه بعضها من مثار جديد للحيرة . ولقد طبع بعض المستشرقين خرائط الإدريسي القديمة كما رسمها ، وشفعوها بخرائط رسموها على النحو المألوف لنا ، فسهل ذلك علينا معرفة الأماكن ومواقع بعضها من بعض . ولئن يسر ذلك

وفي تسلسلها
الجغرافي

لنا أن نحقق ما كان عسيراً تحقيقه فيما مضى ، لقد أثار الريب في بعض الروايات حتى ليتعذر تصديقها . لذلك وقف بعض المؤرخين لعهد أبي بكر مترددين لا يكادون يصدقون ما يقرءون . وكأما صرف ذلك كله غير واحد ممن أرادوا التأريخ للإسلام عن التصدى لهذه الأمور ، فاكثفوا من عهد أبي بكر بالمهمات لا تصوره صورة كاملة تبرز كل ما لهذا العهد من جلال ، وما له في تاريخ الإسلام وفي قيام الإمبراطورية الإسلامية من أثر حاسم .

قلة ما يرد في
المراجع عن
الصديق مع أنه
روح عصره

أضف إلى هذا الاضطراب في المراجع أنها لا تتحدث عن الصديق أيام خلافته ما تتحدث عن خالد بن الوليد وعن القواد الذين دخلوا الشام وأقاموا به حتى جاءهم خالد من العراق ففتح وإياهم دمشق وهدم بعقريته الحربية كل قوة معنوية للروم . وأنت إذ تقرأ هذه المراجع يكاد يخيل إليك أن أبا بكر قد أقام بالمدينة لا يشغله أمر عن العبادة . وهذا خطأ فاحش . فكل ما تم في عهد الصديق كان الصديق روحه ومصدره . أشرنا إلى ما كان بينه وبين عمر وطائفة من المسلمين من خلاف على قتال المرتدين ومن منعوا الزكاة ، وإلى أنه تشبث بقتالهم ولو خرج إلى هذا القتال وحده . وسترى حين تتلو فصول هذا الكتاب أنه هو الذي دفع خالد بن الوليد ليسيير إلى العراق يعزز قوات المشي بن حارثة الشيباني ، وأنه هو الذي دعا العرب في أنحاء شبه الجزيرة إلى فتح الشام . فلما أبطأ أبو عبيدة ومن معه من القواد عن التقدم فيه أمدهم هو بخالد بن الوليد . وفي أثناء ذلك كان هو الذي ينظم بيت المال ، ويقسم الفء بين المسلمين ، ويولى العمال ويهيمن على أعمالهم . وقد بلغ به هذا التفرغ لشؤون الدولة أن انقطع عن التفكير في كل شيء سواها من أموره الخاصة ومن أمور أهله وعياله . وهذا التفرغ التام لشؤون الدولة ، دقيقتها وجليلها ، هو الذي طووع له أن يتم في فترة وجيزة ما لا يتمه غيره في سنوات ، بل ما قل أن يتمه غيره .

ولعل سبباً آخر كان ذا أثر فيما قدمنا عن موقف الرواة والمؤرخين من أبي بكر وعهده ؛ فهم قد حسبوا أن صحبته الرسولَ عشرين سنة كاملة ، واصطفاه صلى الله عليه وسلم إياه حتى ليقول : « لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » — حسبوا أن هذا وذاك أجلّ من كل ما تم في خلافته . ولا مِرْيَة في أن مكانة الصديق من رسول الله لها في تقديرنا جميعاً أجلُّ أثر وأعظمُ مقام ، لكن خلافة الصديق كانت حلقة أتمت هذا الأثر الجليل وتوجّته .

لم يكن عمل الصديق في خلافته أقلّ جلالاً من صحبته رسول الله . بل إنه كان في عهد الرسول ثانی اثنین ، أولهما صفيّ الله لنبوته ومن خصه الله برسالته وأوحى إليه كتابه بينات من الهدى والفرقان . فالعبء الذي حمله أبو بكر أيام الرسالة كان عبء التابع المؤمن الذي لم تتلجج قوة إيمانه بالله ورسوله . أما العبء الذي حمله بعد أن اختار الله رسوله إليه فحمله على أنه أول رجل في المسلمين وخليفة رسول الله بينهم . لم يكن فيه تابعاً يدلى بالمشورة ، بل كان متبوعاً يشير أصحابه عليه ، كما كان يشير هو ومن معه على رسول الله . وقد حمل هذا العبء بإيمان وأمانة وصدق ، جزاه الله وجزى المسلمين عنه أحسن الجزاء . فإذا كان صدق أبي بكر في صحبة رسول الله من أسمى مظاهر العظمة الإنسانية القائمة على دعامة متينة من الإيمان السليم ، فتجرّد أبي بكر في خلافته للدفاع عن دين الله وللدعوة إليه ولإقامة الإمبراطورية الإسلامية لا يقل في جلال سموه عن صحبته الرسول وإيمانه الصادق به وبكل ما أوحاه الله إليه . وتاريخ خلافته جدير لذلك بأن يفصّل أدق التفاصيل .

ليس عمله في
الخلافة بأقل من
الصحة

هذا الاضطراب في المراجع ، وهذا التأثير في تصوير عهد الخليفة الأول بعوامل لا يقرّ النقد التاريخي الكثير منها ، قد كان له ما رأيت من أثر في كتب المتقدمين ، ثم كان له أثره فيما تلا ذلك من جهود من أخذوا عنهم وحاولوا أن يستنبطوا صورة الحقيقة كاملة من كتبهم .

أثر اضطراب
المراجع في
المؤرخين

ولقد بلغ هذا التأثير ببعض المتأخرين أن جعلهم لا يثقون عند عهد أبي بكر إلا لما تم يتخطونه إلى عهد عمر فيطيلون الوقوف عنده . بل لقد يبلغ الأمر ببعضهم أن يوازن بين عهد أبي بكر وعهد عمر ليفاضل بينهما . وهذه مفاضلة لا موضع لها بين رجلين بلغ كل منهما من مراتب العظمة ما قل أن يبلغه سياسى أو حاكم لأمة فى تاريخ العالم كله . ولقد كان عهد عمر من أعظم عهود الإسلام لا ريب . فيه استقرت قواعد الإمبراطورية ، واستتب نظام الحكم ، ورفّ لواء الإسلام على مصر وغير مصر من البلاد التى اعتزّ بها الروم واعتزّ بها الفرس . لكن هذا العهد الفاروقى العظيم مدين لعهد الصديق ومتم له كدين خلافة الصديق لعهد الرسول وإتمامها له .

جهود المستشرقين
ومؤرخى المسلمين

على أن الدراسات التى تمّت والكتب التى وضعت عن أبي بكر وعهده فى العصور الأخيرة كانت أدنى إلى الدقة والإنصاف . ومن الحق على أن أشيد بما كان للمستشرقين من فضل سبق إلى هذه الدقة وإلى هذا الإنصاف ، على تحيز بعضهم تحيزاً دفعت إليه العاطفة الدينية . فقد صنف « الأب مارينى » كتابه عن « خلفاء محمد » فى القرن الثامن عشر ؛ وصنّف « كوسان د برسفال » مؤلفه « رسالة فى تاريخ العرب » فى أوائل القرن التاسع عشر ؛ وكتاب « السير وليم ميور » عن « الخلافة الأولى » يرجع إلى سنة ١٨٨٣ . وفى أثناء ذلك ، وإلى وقتنا الحاضر ، لم يبرح المستشرقون فى ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا وغيرها من الدول يحصون العهود الإسلامية المختلفة تمحيصهم غيرها من عصور التاريخ فى مختلف أنحاء العالم .

أمّا وقد ذكرت جهود المستشرقين ، فمن الحق على أيضاً أن أذكر جهود المؤرخين المسلمين والعرب ، وما كان من إنصافهم عهد الصديق ومحاولتهم الدقة فى أمره .

أَرْخَ السيد رفيق العظم لهذا العهد منذ بضع عشرات من السنين في الجزء الأول من كتابه « أشهر مشاهير الإسلام » ؛ وكان متأثراً بطريقة الأقدمين في كثير من مواقفه . وتحدث المرحوم « الشيخ محمد الحضري بك » فقال في ختام محاضرة له : « إنا نقول في ذلك قولاً صريحاً : لولا أبو بكر وعزيمته القوية ، بعد معونة الله وتأييده ، ما كان تاريخ المسلمين يسير سيره الذي عرف . حصل ذلك في وقت استولى فيه الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى أقوامهم شكيمة وأشدهم قلباً » .

وأفرد الأستاذ « عمر أبو النصر » الجزء الأول من كتابه « خلفاء محمد » للصدِّيق وعهده . كذلك تحدث المرحوم « الشيخ عبد الوهاب النجار » وغيره من المؤرِّخين عن هذا العهد حديثاً جديراً بالتقدير .

أمل

والآن ، وقد وفقني الله لوضع هذا الكتاب ، فهل تتيح لي الأقدار أن أردفه بآخر عن عهد عمر ، وثالث وبرابع حتى أتم ما دار بخاطري أن أقوم به من دراسات في تاريخ الإمبراطورية الإسلامية ؟ ذلك أمر علمه عند ربي . لقد استقرّ مني العزم أن أدوّن لعهد عمر . لكن بين العزم والتنفيذ مدى أرجو الله أن ييسره لي ، مع صدق يقيني بقوله تعالى : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » .

وأختم هذا التقديم بالضراعة إلى الله أن يوفق العلماء والباحثين لمتابعة البحث في حياة الصدِّيق وفي عهد خلافته ، حتى تتم ببحوثهم الصورة التي حاولت أن أجلوها في هذا الكتاب . وأحمد الله لما صادفني من التوفيق فيما حاولت . من الله الهدى ، وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله .

محمد حسين حسين